

المثل السائر

(وَلَمْ يَأْكُلْ قَضِيذًا مِنْ مَدْيِ كُلِّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالْأَرَكَّانِ مَنْ هُوَ مَسَّحٌ) .

(أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيِّنَاتًا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِيحُ) .

ألا ترى إلى حسن هذا اللفظ وصقالته وتدبيج أجزائه ومعناه مع ذلك ليس مدانيا له ولا مقاربا فإنه إنما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل ولهذا نظائر شريفة الألفاظ خسيصة المعاني .

فالجواب عن ذلك أنا نقول هذا الموضوع قد سبق إلى التشبث به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما رآه القوم وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر وعدم معرفته وهو أن في قول هذا الشاعر كل حاجة مما يستفيد منه أهل النسيب والرقعة والأهواء والمقة ما لا يستفيد غيرهم ولا يشاركونهم فيه من ليس منهم ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة فمنها التلاقي ومنها التشاكي ومنها التخلي للاجتماع إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به فكأن الشاعر صانع عن هذا الموضوع الذي أوماً له وعقد غرضه عليه بقوله في آخر البيت ومسح بالأركان ما هو مسح أي إنما كانت حوائجنا التي قضيناها وآرابنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به وجار في القرية من [] مجراه أي لم نتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح وأما البيت الثاني فإن فيه أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وفي هذا ما نذكره لتعجب به وبمن عجب منه ووضع من معناه وذلك أنه لو قال أخذنا في أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب فإنه قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الإلفين والجدل بجمع شمل المتواصلين ألا ترى إلى قول بعضهم .

(وَحَدِيثُهَا يَأْسَعِدُ عَذْهًا فَزِدْ تَنِي ... جُنُونًا فَزِدْ نِي مِنْ حَدِيثِكَ يَأْسَعِدُ) .

وقول الآخر .

(وَحَدِيثُهَا السَّحَرُ الْخَلَالُ لَوْ أَنَّه ... لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ) .

فإذا كان قدر الحديث عندهم على ما ترى فكيف به إذا قيده بقوله أخذنا